

مسجد المنطقة وبراثا

✍ مصطفى جواد

قرأت في الصحف قبل مدة خبر عزم جماعة من المحسنين على تعمير جامع سموه (جامع براثا) فتبادر إلى ذهني القاصر أنهم أرادوا بجامع براثا المسجد القائم اليوم بين بغداد والكاظمية المعروف بمسجد المنطقة أو جامع المنطقة.

إن الناس يسمونه [جامع المنطقة] قديماً وحديثاً، نقل ذلك الاسم الأبناء عن الآباء والآباء عن الأجداد فكيف صار جامع المنطقة جامع براثا؟

بيان ذلك أن بعض علمائنا الفضلاء - تغمدهم الله بعفوه وشملهم برحمته - ممن عاشوا قبل قرن واحد أو أكثر، أحب أن يتفقد قبور أعيان الشيعة الإمامية، ومزاراتهم ومشاهدهم ومعابدهم فحمله حسن النية وكرم الطوية وسلامة القلب، أن يوزع أسماء الأعيان من الإمامية وأسماء الشريف من مزاراتهم، على قبور مجهولة الأصحاب ومعابد منقطعة الأسباب. وهكذا كانت نتيجة عمل غير مستند إلى التحقيق والتدقيق فيجب على العاقل المنصف لنفسه وللحق أن يقف عند حدود علمه ولا يتكلف ما يجهل.

ومن تلكم الغلطات البغيضة التي نقاسيها اليوم ونرزح تحت ضررها، تسمية جامع المنطقة بجامع براثا، والواجب الديني التاريخي يدعونا إلى القول: إن جامع المنطقة هو جامع المنطقة وجامع براثا هو جامع براثا، كل منهما مخالف للآخر. فالأول - أعني جامع المنطقة - في شرقي مدينة المنصور المدورة المعروفة بمدينة السلام، العافية الزائلة، وجامع براثا كان في جنوبي مدينة المنصور الغربي قرب مجرى الخرالحالي، وقد قال علماء البلدان أنه كان في جهة القبلة من الكرخ وكلاهما كان من المقامات المقدسة عند الشيعة.

أما جامع المنطقة فقد كان يسمى "مشهد المنطقة" منذ أكثر من سبعمائة سنة، وكان يسمى من قبل "مسجد العتيقة" وكانت العتيقة تسمى "سونايا" قبل ذلك.

وسونايا قرية كانت في هذا الموضع - موضع المنطقة - يسكنها الأنباط - أي الكلدانيون - وكانت من أجمل القرى بمزارعها وبساتينها وفواكهها وهذا العنب الأسود الذي ينضج قبل سائر الأعناب أصله منها وعرف قديماً بالعنب السوداني.

ولما بنى بنو العباس مدينتهم المدورة بين أرض المنطقة وأرض الكاظمية صارت قرية سونايا من القرى الداخلية في المحلات المحيطة بالمدينة المنورة وامتدت العمارة إليها وأنشئ هناك سوق عظيمة ولما كانت أقدم زماناً من مدينة المنصور سموها العتيقة إشارة إلى عتقها، قدم زمانها.

وكان الشيعة يروون في أخبارهم، أن الإمام علياً المرتضى عليه السلام صلى أو اعقل وصلى في موضع من مواضع سونايا هذه عند قدومه هذه الديار لحرب الخوارج العصاة الجهال أو لغير ذلك من حركاته الحربية الأخرى سنة ٣٨ هـ وجماعة من الرواة قالوا إن صلاته كانت في أرض جامع براثا قرب مجرى نهر الخر لا في موضع المنطقة واختلاف الروايتين حملهم على عمر مسجدين في الموضعين المذكورين مع تباعد أحدهما عن الآخر كما قلنا آنفاً.

وقد ذكر أبو بكر الخطيب الموضوعين في تاريخه على حسب اختلاف الروايتين. قال "وفي سوق العتيقة - يعني المنطقة - مسجد تغشاه الشيعة وتزوره وتعظمه وتزعم أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) صلى في ذلك الموضع ولم أر أحداً من أهل العلم يثبت أن علياً دخل بغداد ولا روي لنا شيء غير ما أخبرنا القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي الصيمري قال: أنبأنا أحمد بن محمد بن علي الصيرفي، قال: أنبأنا القاضي أبو بكر محمد بن عمر الجعابي الحافظ - وذكر بغداد - فقال: "يقال إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب اجتاز ببغداد إلى النهروان راجعاً منه وأنه صلى في مواضع منها فإن صح ذلك فقد دخلها من كان معه من الصحابة". يعني مثل أبي الطفيل عامر بن واثلة وأبي مسعود عقبة بن عمرو.

"قال الخطيب: حدثني أبو الفضل عيسى بن أحمد بن عثمان الهمداني قال: سمعت أبو الحسن بن زرقويه يقول: كنت يوماً عند أبي بكر بن الجعابي فجاء قوم من الشيعة فسلموا عليه ورفعوا إليه صرة فيها دراهم ثم قالوا له: "أيها القاضي إنك قد جمعت أسماء محدثي بغداد، وذكرنا من قدم إليها وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد وردنا، فتسألك أن تذكره في كتابك". فقال: نعم. يا غلام هات الكتاب. فجاء به، فكتب فيه وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقال إنه قدمها" قال ابن زرقويه فلما انصرف القوم قلت له: أيها القاضي، أهذا الذي ألحقته في الكتاب من ذكره؟ فقال هؤلاء الذين رأيتهم أو كما قال، وابن زرقويه كان متحافاً عن الحقيقة بهواه.

قال الشيخ أبو بكر الخطيب: والمحفوظ أن علياً سلك طريق المدائن - يعني سلمان باك - في ذهابه إلى النهروان وفي رجوعه والله أعلم^(١).

والعجب من أبي بكر الخطيب كيف أقدم على هذا القول فإن الشيعة قالوا إن أمير المؤمنين دخل بغداد ولم يوجبوا أن يكون داخلها في تعقيبه أهل النهروان وإن كان دخوله إياها في قصده أهل النهروان هو القول الراجح.

فالخطيب نفسه روى في الجزء الأول من تاريخه بسنده إلى ابن الطفيل عامر بن واثلة. قال: سمعت علياً عليه السلام يقول بمسكن - يعني أرض بلد والسميكة لا أغسل رأسي بغسل حتى آتي البصرة فأحرقها ثم أسوق الناس بعصاي إلى مصر، فاثبت أبا مسعود عقبة بن عمرو البديري فأخبرته فقال: إن علياً مورد الأمور مواردها ولا تحسنون أن تصدروها، علي لا يغسل رأسه بغسل ولا يأتي البصرة ولا يحرقها ولا يسوق الناس بعصاه إلى مصر، علي رجل أصلع رأسه مثل الطست، إنما حوله مثل الشعرات أو قال زغيبات^(٢).

والذي يصل إلى مسكن وهي أرض بلد والسميكة كيف يستبعد عليه أن يدخل بغداد؟ فالخطيب كان في غفلة عما روى، وسهو عما حوى، ولقد جاء في الأخبار، أن أمير المؤمنين اجتاز ببادوريا وهي مزارع الجانب الغربي من بغداد حتى مقابل الجادرية، فخرج إليه أهل قرية منها تسمى قطفتا - وهي محلة الشيخ معروف وما حولها من الحصانة وغيرها، فشكوا إليه كثرة الخراج على قريتهم، وأن خراجهم مخالف لسائر خراج العراق، فقال لهم: رب جحش صغير خير من حمار كبير، إنكم تبيعون ثماركم بضعف ما يبيعها به غيركم من أهل السواد^(٣).

روي ذلك في كتاب الإمامة المنسوب إلى البغدادي. والذي يمر بأرض الشيخ معروف كيف يستغرب مروره بأرض المنطقة ثم أن أمير المؤمنين لما خرج إلى يصفين مر بالمدائن ولا يبعد مروره بعدها ببغداد. وروى الطبري في أخبار الخوارج أن سعد بن مسعود الثقفي عامل الإمام علي (ع) على المدائن أراد أن يقطع على الخوارج طريقهم ولكنهم جعلوا طريقهم على بغداد وأدركهم سعد بن مسعود بالكرخ في خمسمائة فارس عند المساء وجرت مناوشة بينهم ثم عبر الخوارج دجلة ليلاً وقصدوا النهروان جنوبي بعقوبا، وروى

(١) تاريخ الخطيب البغدادي، ج ١ ص ٩٠.

(٢) تاريخ الخطيب، ج ١ ص ١٩٨.

(٣) كتاب الإمامة المنسوب إلى المسعودي، ص ١١٦.

الطبري أيضاً أن أمير المؤمنين تحرك بجيشه من الأنبار صامداً إلى الخوارج^(١) والأنبار كانت فوق الفلوجة ومن الأنبار جاء الإمام إلى بغداد فعبر دجلة وأدرك الخوارج بين بعقوبا والنهروان، والظاهر أن سعد بن مسعود الثقفي لما أدرك الخوارج بالكرخ وناوشهم القتال قتل جماعة من أصحابه، ودفنوا في غربي أرض الكاظمية، في موضع عرف في أيام بني العباس، بمقابر الشهداء وقد اشتبه أمرهم على ابن الجوزي في تاريخه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز، قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: لم أزل أسمع العامة، تذكر أن مقابر الشهداء، قبور جماعة من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كانوا شهدوا قتل الخوارج بالنهروان، وارتثوا في الوقعة - أي أصابتهم جراحات ثقيلة، ثم لما رجعوا أدركهم الموت في ذلك الموضع فدفنهم علي (ع) هناك. وقيل إن فيهم من له صحبة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم. قال ابن الجوزي "ولا نعرف لهذا الذي يقال لهذه المقبرة أصلاً، وقد كان حمزة بن محمد بن طاهر - وكان من أهل الفهم وله قدم في العلم - ينكر ما قد استمر عند العامة، من ذلك ويقول: لا أصل له"^(٢) والذي يظهر لي أنهم قتلوا بقيادة سعد بن مسعود كما ذكرت من قبل.

أما جامع المنطقة فقد قال فيه ابن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩هـ في كتابه مراصد الاطلاع ص ٢٢٩: "سونايا قرية قديمة كانت ببغداد، ينسب إليها العنب الأسود، الذي يتقدم وي بكر على سائر العنب، ولما عمرت بغداد دخلت في العمارة؛ وصارت محلة من محالها وهي العتيقة، وبها مسجد لعلي بن أبي طالب يعرف بمشهد المنطقة".

وذكر هو أيضاً جامع براثا في كتابه المذكور وإفاداته جامع للشيعة آخر.
إن جامع براثا قد كان قرب مجرى الخر وزالت آثاره قبل عصور.



(١) تاريخ الطبري في حوادث سنة ٣٧ ج ٦، ص ٤٢ - ٣ و ٤٧.

(٢) المنتظم ج ١، ص ٩٨ - ٩٩.